

534999 - هل ورد في شعر وخطب أهل الجاهلية وصف الجبال بالرواسي؟

السؤال

ووجدت ذكرًا لتشبيه الجبال بالرواسي في الجاهلية، ومن ذلك شعر المهلل في "تواتر الأعيان" لسبط ابن الجوزي، وشعر زيد بن عمرو بن نفيل في "البداية النهاية" لابن كثير، و"التاريخ الكبير" لابن هشام و"تفسير القرطبي"، و"لسان العرب" لابن منظور، وخطب قيس بن ساعدة في "البداية والنهاية" لابن كثير، و"دلائل النبوة" لبيهقي، فأرجو التتحقق مما إذا لم يكن ذلك الشعر منحولاً أو الأحاديث ضعيفة.

الإجابة المفصلة

وصفت الجبال في القرآن الكريم بالرواسي والأوتاد، كقوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَّاً، أَخْيَاءً وَأَمْوَاً، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَّاتًا) المرسلات/25 - 27.

وكقوله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا، وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا) النبأ/6 - 7.

وقد يجد المطالع لأخبار أهل الجاهلية الواردة في كتب التاريخ والسير والأدب، أن بعضهم في شعره أو خطبه أو كلامه يصف الجبال بالرواسي والأوتاد.

وبعض أهل الإلحاد والكفر يتخذ مثل هذه الأخبار كمستند للتشكيك في كون هذا الكتاب الكريم كلام الله تعالى الخالق لهذا الكون.

لكن هذا التشكيك لا قيمة له، للأمور الآتية:

الأمر الأول:

أن ليس كل أشعار أهل الجاهلية وكلامهم ثابتًا مقطوعًا بصحته، بل كثير منه يذكر من باب الاستثناء والتساهل في باب الأخبار والتاريخ، ولا يمكن القطع بصححة ثبوته، وجملة منه مما قطع أهل العلم بأنه منحول مكذوب.

ومن ذلك الباب: كثير من شعر أمية بن أبي الصلت وغيره من روی عنهم أشعار متعلقة بالأديان. فكل مطالع لها، ومقارن لها بآيات القرآن الكريم إذا كان له أن يشك، فشكه في صحة هذه الأشعار ونسبتها إلى أصحابها، هو الصواب، فلا الأسلوب أسلوب أهل الجاهلية، ولا السند إلى أصحابها بذلك الثابت الذي تقوم به الحجة، ولو مع المسامحة.

قال الدكتور شوقي ضيف رحمة الله تعالى:

”وَجَمِعَ لَهُ [أَيْ لَامِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَتْ] شُولْتْهُس Schulthess مُجَمُوعَةٌ مِّنْ أَبِيَّاتِهِ، تُرْجِمَهَا إِلَى الْأَلْمَانِيَّةِ وَنُشَرَّهَا فِي لِيِّزِجْ سَنَةِ 1911 وَفِي سَنَةِ 1936 نُشِرَ لَهُ بِشِيرٍ يَمُوتُ فِي بَيْرُوتِ طَائِفَةً مِّنْ أَشْعَارِهِ بِاسْمِ دِيوَانِ لَامِيَّةِ.

وَتَدُورُ هَذِهِ الْأَشْعَارُ فِي مَوْضِعَيْنِ أَسَاسَيْنِ: أَمَّا الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ فَيَتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَنَسَأَةِ الْكَوْنِ، مُسْتَدِلاً بِذَلِكَ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ، وَمُتَحَدِّثًا عَنِ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْعَذَابِ وَالثَّوَابِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ:

إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَكُلَّ أَرْضٍ ... وَرَبُّ الرَّاسِيَّاتِ مِنَ الْجَبَالِ

بَنَاهَا وَابْنَتِي سَبْعَا شَدَادَا ... بِلَا عَمْدَ يُرْبِّينَ وَلَا رَحَالَ

وَسَوَّاهَا وَزَيَّنَاهَا بِنُورٍ ... مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيَّةِ وَالْهَلَالِ

... وَهَذِهِ الْمَعْانِي تَسْتَمدُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِصُورَةٍ وَاضْحَى، وَأَسْلُوبُهَا ضَعِيفٌ وَاهِنٌ، وَلَذِكَّ كَنَا نَظَنَ ظَنًا: أَنَّهَا وَمَا يَمَاثِلُهَا، مَا نَحْلُ عَلَى أَمِيَّةِ.

وَالْمَوْضِعُ الثَّانِي الَّذِي يَدُورُ فِيهِ شِعْرُهُ: لَيْسَ أَقْلَى مِنَ الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ اتَّهَاماً، بَلْ لِلْعُلُوِّ الْإِتَّهَامِ فِيهِ أَوْضُحُ، إِذْ نَرَاهُ يَقْصُّ عَلَيْنَا سِيرَ الْأَنْبِيَاءِ قَصْصَا لَا يَكَادُ يَفْتَرِقُ فِي شَيْءٍ عَمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَقَوْلِهِ فِي رَؤْيَاةِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ يَذْبَحُ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَمَا كَانَ مِنْ افْتَدَاهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ:

وَلِإِبْرَاهِيمَ الْمُوْقَى بِالثَّذِّ ... رَاحْتَسَابَا وَحَامِلُ الْأَجْزَالِ

بَكَرَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَصْبِرْ عَنْهُ ... أَوْ يَرَاهُ فِي مَعْشَرِ أَقْتَالِ

... وَوَاضِحٌ أَنَّ هَذَا شِعْرُ رَكِيكٍ، سَاقِطُ الْأَسْلُوبِ، نَظَمُهُ بَعْضُ الْقَصَاصِ وَالْوَعَاظِ فِي عَصُورٍ مَتَّاخِرَةٍ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقَدْ ذَهَبَ هِيَارِ يَرْعُمُ، حِينَ اطَّلَعَ عَلَى هَذَا الْقَسْمِ مِنْ شِعْرٍ أَمِيَّةٍ، أَنَّهُ اكْتَشَفَ فِيهِ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَوْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ بِالْعَرَبِيَّةِ وَأَسَالِيبِ الْجَاهِلِيِّينَ، لَعِرْفَ أَنَّهُ وَقَعَ عَلَى أَشْعَارٍ مُنْتَهِلَّةٍ بَيْنَ الْإِنْتَهَى، وَلَمَا تَوَرَّطَ فِي هَذَا الْخَطَأِ الْبَيِّنِ.

وَقَدْ رَدَ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ ...

وَوَاضِحٌ مَا قَدَّمَنَا أَنَّ مَا رُوِيَ مِنْ أَشْعَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الْيَهُودِ وَمِنْ تَنَصُّرٍ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مِنْ تَحْتِفَ كَأْمِيَّةِ، دَخْلِهِ وَضَعِيفٌ، وَلَذِكَّ يَنْبَغِي أَنْ نَحْتَرِسَ مِنْهُ، وَأَنْ لَا نَنْتَسِعَ فِي الْحُكْمِ عَنْ طَرِيقِهِ عَلَى دِيَانَاتِ الْقَوْمِ وَمَعْقَدَاتِهِمْ، إِذْ يَجْرِي فِيهِ الْإِنْتَهَى، وَقَدْ دَخَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْفَثَاءِ وَالْإِسْفَافِ فِي الْلُّفْظِ وَالْتَّعْبِيرِ ”انتَهَى“، ”تَارِيخُ الْأَدْبُرِ الْعَرَبِيِّ“ (1 / 395 – 397).

الْأَمْرُ الثَّانِي:

أن من هؤلاء الشعراء من كان يطالع كتب أهل الكتاب، ويحصل بأصحاب هذه الديانات، وأمور الخلق والبعث، مما تشتهر فيه الكتب الألهية، فقد ينزل الله تعالى من آيات القرآن الكريم ما أنزل معناه في كتب سابقة، كما في قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لِفَيِ الصُّحْفِ الْأُولَى ، صُحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) الأعلى/ 14 – 19.

الأمر الثالث:

أن وصف أهل الجاهلية للجبال بالأوتاد والرواسي، إن ثبت ذلك عنهم، فليس فيه إلا أنه وصف لما يظهر لهم من شكل الجبال؛ أنها ثابتة وراسية في الأرض كالوتد.

وهذا أمر يدركه كل عربي، بل كل إنسان، وإذا عبر عنه كل عربي، بالجبال الرواسي: لم يكن في ذلك مؤونة عليه، ولا إشكال، ليس المهلل وأمية وقس وحدهم، بل كل عربي. والوحي عربي، ويحدث الناس بما يدركونه بحواسهم، ويعبر لهم بلسانهم الذي يعرفون؛ فائي عجب في أن يصف لهم الجبال بوصف، وقع نظيره أو شبيهه في أشعار العرب؟! إن هذا عجب من العجب، وسخف من القول وبالباطل، لا يشغل به إلا أغمار الناس، وسفهاء الأحلام.

ثم لقائل أن يقول أيضاً: إن القرآن الكريم وهو يذكر وصف الجبال بالرواسي والأوتاد، ليس لمجرد ما يظهر من شكلها فقط؛ وإنما لأمر آخر أيضاً لا يدركه إلا خالق هذا الكون، وهو أنها لثبتت الأرض حتى لا تتحرك وتضطرب بأهلها، ويظهر هذان المعنيان في قوله تعالى: (وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهَتَّدُونَ ، أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، وَإِنْ تَعُدُوا نُعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) النحل/ 15 – 18.

قال شيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمة الله تعالى:

“قوله تعالى: (وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهَتَّدُونَ)، ذكر جل وعلا في هاتين الآيتين أربع نعم من نعمه على خلقه، مبيناً لهم عظيم منته عليهم بها:

الأولى: إلقاء الجبال في الأرض لثبتت ولا تتحرك، وكررت الامتنان بهذه النعمة في القرآن، كقوله: (أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أُوتَادًا) ... والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومعنى تميد: تميل وتضطرب.

وفي معنى قوله: (أَنْ) وجهان معروفان للعلماء:

أحدهما: كراهة أن تميد بكم.

والثاني: أن المعنى: لئلا تميد بكم، وهو ما متقاربان ”انتهى.“ أضواء البيان” (3 / 306).

ولمزيد الفائدة تحسن مطالعة جواب السؤال رقم: (247024).

والله أعلم.